مساهمة علماء المغرب الأوسط الحضارية
من خلال تفسير الشيخ هود بن محكّم الهواري

Contribution Of The Middle Eastern Civilizational Scientists
Through The Interpretation Of Sheikh Hud bin Mohakkim El-Howari

تاريخ الإرسال: 2018-03-04 تاريخ القبول: 2018-04-09

الدكتور: محمد رافة

moh—58@hotmail.fr :

جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف (الجزائر)

الملخص :

لا شك أن الدراسات القرآنية التي تجعل من القرآن الكريم مادتها الأولية تعطيه الصدارة على غيره من الدراسات ، فلا ريب في ذلك ، فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد ، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم ، ومن اهتدى به هداه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

ولما كان استيعاب القرآن الكريم والوقوف على أحكامه ومعانيه يمر حتما عبر تدبره لقوله : " كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ " ص:29 كان علم التفسير من أجَل العلوم التي استطاعت أن تنقل الآمة من السذاجة إلى التفكير العلمي ومن البداوة إلى الحضارة ، حيث أحيى القرآن نفوسها وشحذ هممها فتضافرت جهود العلماء شرقا وغربا ، وأخذوا بالأسباب في مجال البحث سواء ما تعلق منها بالعلوم الشرعية أو العقلية ، ساهمت كلها في بناء حضارة ظلت رائدة لقرون من الزمن.

وضمن هذا الإطار تأتي هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على مساهمة علماء الغرب الإسلامي وخاصة الجزائر في بناء الحضارة العلمية والفكرية في مجال من مجالات العلوم الشرعية وهو علم التفسير بداية من القرن الثالث الهجري إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية : العلوم الشرعية ; الحضارة ; التفسير ; الفتوحات ; العربية

Abstract :

There is no doubt that the Qur'anic studies that make the Holy Qur'an primary subject give Qur’an it precedence over the other studies. There is no doubt about that. The Holy Qur'an is the word of Allah, which is not falsehood either from his hands or from his successor.And the path of the straight, and guided by the guidance of God and those who seek guidance in other God astray. As the comprehension of the Holy Quran and the stand on its provisions and meanings inevitably passes through the management of saying: " A blessed Book that We sent down to you, that they may ponder its Verses, and for those with intelligence to take heed " surat sad : 29

Was the science of interpretation for science that was able to transfer the nation from naivety to scientific thinking and from Bedouin to civilization, Where the Qur'an revived its

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

souls and sharpened their hopes. The efforts of scientists in the east and west, combined with the reasons for research, whether related to the legal or mental sciences, contributed to building a civilization that has been a pioneer for centuries Within this framework, this paper aims to highlight the contribution of Western Islamic scholars, especially Algeria, to the building of the scientific and intellectual civilization in the field of forensic science, the science of interpretation from the third century AH until today.
Key Words :Islamic Sciences ; Civilization ; Interpretation ; Conquests ; Arabic

مقدمة :

لا يزال الإرث الفكري والحضاري الذي خلفه علماء المغرب الإسلامي في شتى مجالات المعرفة ذخرا مغمورا ، بحاجة لرجال يشحذون هممهم للغوص في أعماقه واكتشاف مكنونه.

إن الأبحاث العلمية والدراسات والتحقيقات لكتب التراث التي تركها أسلافنا والتي تنم عن عمق وأصالة الفكر ، تجعل الباحثين اليوم أمام تحديات ، تكمن في إحياء هذا التراث وإخراجه إلى النور ليكون نبراسا للأجيال القادمة.

لا شك أن الدراسات القرآنية التي تجعل من القرآن الكريم مادتها الأولية ، تعطيه الصدارة على غيره من الدراسات ، فلا ريب في ذلك ، فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد ، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم ، من اهتدى به هداه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

ولما كان استيعاب القرآن الكريم والوقوف على أحكامه ومعانيه يمر حتما عبر تدبره لقوله تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ص:29 كان علم التفسير من أجَل العلوم التي استطاعت أن تنقل الآمة من السذاجة إلى التفكير العلمي ومن البداوة إلى الحضارة ، حيث أحيى القرآن نفوسها وشحذ هممها فتضافرت جهود العلماء شرقا وغربا ، وأخذوا بالأسباب في مجال البحث سواء ما تعلق منها بالعلوم الشرعية أو العقلية ، ساهمت كلها في بناء حضارة ظلت رائدة لقرون من الزمن.

وضمن هذا الإطار تأتي هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على مساهمة علماء الغرب الإسلامي وخاصة الجزائر في وقت مبكر لبناء حضارة علمية وفكرية في مجال من مجالات العلوم الشرعية وهو علم التفسير بداية من القرن الثالث الهجري ويستوقفنا جملة من الأسئلة : هل كانت اللغة لبلدان المغرب الإسلامي – وهم بربر وأمازيغ – تشكل عائقا في استيعاب القرآن الكريم فضلا عن البحث فيه ؟ إذا كان الأمر كذلك فما منهج الفاتحين لبلاد المغرب العربي لتجاوز هذه العقبات؟ كيف استطاع المغاربة رفع التحدي باللحاق بإخوانهم المشارقة الذين تقدموا عليهم بحكم السبق إلى الإسلام فضلا عن امتلاكهم للسليقة اللغوية حيث كانوا عرب الألسن ، فكان فهم القران الكريم واستجلاء معانيه أمرا متيسرا .وفي المقابل كان لزاما على المدرسة المغاربية المرور بمرحلة الممارسة والتعليم قبل البحث والتأليف.هل أبدع المغاربة في فن التفسير وأضافوا جديدا إلى الرصيد العلمي والمعرفي عما وصل إليهم إخوانهم ونظرائهم المشارقة ؟هل كانت مباحثهم تتسم بالجدة والتميز ؟هل فتحوا آفاقا استشرافية لفهم القرآن الكريم ؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تلكم هي الأسئلة التي نتوخى من هذا البحث الإجابة عنها من خلال نماذج تطبيقية من تفسيراتهم.

من الصعوبة بمكان الإلمام بكل مظاهر الحياة العلمية والفكرية منذ ظهور الإسلام في الأقطار المغاربية نظرا لاتساع الرقعة الإسلامية وطول الحقبة الزمنية و كثافة الثروة العلمية للموروث الفكري والحضاري ، لذا ارتأينا حصر الموضوع من حيث المكان على المغرب الأوسط (الجزائر) دون سواه ، ومن حيث مجال البحث على علم من العلوم الشرعية ألا وهو علم التفسير فجاء عنوان البحث : مساهمة علماء المغرب الأوسط الحضارية – علم التفسير أنموذجا من خلال تفسير هود بن محكّم الهواري

كان الرعيل الأول من الصحابة والتابعين يتميزون بفصاحة اللسان وقوة البيان ، وكانت سليقتهم اللغوية تؤهلهم لفهم كتاب الله تعالى ، إلا ما تعذر عليهم وأُشكل عليهم فكان عليه الصلاة والسلام مرجعهم فيُبين لهم .ولا ريب فتلك مهمته التي كلفه الله تعالى بها لقوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ النحل :44 ومن الطبيعي أن يختلف الصحابة وغيرهم في فهم كتاب الله تعالى لاختلاف مداركهم ، فهذا ابن عباس رضي الله عنه وهو حبرُ الأمة ببركة دُعاء الرسول صلى الله عليه وسلم له – بالفقه وحسن التأويل يقول : " كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا، أي ابْتَدَأْتُهَا " [3]

يحفظ لنا التاريخ ، بأن مرحلة الفتح الإسلامي لبلاد الغرب الإسلامي عامة وللمغرب الأوسط خاصة تمثل الصفحة المشرقة في تاريخ الحضارة الإسلامية . لقد حمل الفاتحون سماحة الدين الإسلامي وعدالته وعرف البربر معنى الحرية الدينية والفكرية وتلمسوا فيه القيم العليا والأخلاق العالية ، دين يدعوا إلى التحضر والعلم وينأى عن البداوة والجهل ، فضلا عن أخلاق الفاتحين التي استهوت البربر وجعلهم يعتنقون هذا الدين عن طواعية دون إكراه فشحذوا هممهم في طلب العلم سواء كانت علوما شرعية أو عقلية .باختصار " وجد قدماء السكان في هؤلاء الوافدين الجدد ما يشعرهم بسهولة الانسجام معهم والامتزاج بهم، وهو الذي لم يجدوه عند من سبق إليهم من يونان وروما وبيزنطيين." [4]

لا شك أن فهم النصوص الشرعية من قرآن أو سنة يمر حتما عبر فهم اللغة العربية الحاملة لهذا الدين ، فهي الوسيلة لفهم معاني القرآن ومقاصده كما أنها اللغة الرسمية التي يدير بها الفاتحون أمورهم الدنيوية من إدارة الحكم والعمران وتعليم الفنون والاقتصاد .

كانت الحوافز لتعلم اللغة العربية قائمة ، صحيح أن العالمية من خصائص الشريعة الإسلامية فهي لا تفرق بين الناس في الجنس أو اللون أو اللسان ، كان ذلك واضحا منذ البداية في قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ الحجرات : 13 وقوله صلى الله عليه وسلم : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " [5]

لقد ظل وجود اللغات غير العربية في الأقطار التي فتحها الإسلام باق ،ويبدو أن تعلم اللغة العربية من الأعاجم ممن اعتنقوا الإسلام ستتحقق بالتبعية لأنها ببساطة لغة القرآن .

خاصية عالمية الرسالة نلمسها في مكونات الرعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم وجود سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي إلى جانب إخوانهم العرب من قريش وتميم وغيرها ما يشير إلى تجسيد الخاصية — وتعدد الألسنة والأجناس. " وعلى الرغم من تعريب المنطقة التي تُسمّى اليوم "الوطن العربي" فإن هناك جزرًا لغوية احتفظت بلغاتها التي كانت تتكلمها قبل الإسلام، منها: اللغة النوبية في جنوب مصر وشمال السودان وأواسطه، واللغة الأثورية وهي من بقايا الآشورية في العراق، واللغة الكردية في العراق، والأرمينية في الشام، والبربرية في شمال أفريقيا.."[6]

ويستوقفنا سؤال : هل كانت اللغة لبلدان المغرب الإسلامي – وهم بربر وأمازيغ – تشكل عائقا في استيعاب القرآن الكريم فضلا عن البحث فيه ؟

اللغة عند الكثير من الباحثين ، تتعدى عملية التواصل، فهي حامل للموروث الفكري والحضاري، وهي تعبير عن قيم المجتمع وجزء من هويته بل "الوعاء الذي يحفظ تاريخ الأمة وإنجازاتها في مختلف المجالات"[7].وهي – أي اللغة– بهذا المفهوم أداة للتفكير ، مكنت الإنسان من تطوير وترقية أفكاره في شتى مجالات المعرفة ، وبها حُفظ للبشرية تراثها وتاريخها، وبفك رُموزها ، استطاع الإنسان أن يقفَ على نمط حياة الحضارات القديمة ، الفكرية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

دوافع تعلُّم اللغة العربية:

لا شك أن للقرآن الكريم فضلٌ على اللغة العربية بإضفاء القدسية عليها ،بل على كل الدراسات اللغوية فيما بعد ،حتى أضحي تعلمها من الدين . وقد عدَّ الإمام ابن تيميَّة تعلُّم اللغة العربية من الفروض الواجبة، فقال: "إن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فَهْم الكتاب والسنة فرض، ولا يُفهَم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" [8]

أبدى سكان المغرب الأوسط رغبة شديدة وشغف كبير في فهم معاني القرآن والوقوف ، على أسراره ومعانيه أحكامه وحكمه ، مما حدا بهم إلى تعلم اللغة العربية باعتبارها أداة للعلم حتى يتسنى لهم لقيام بواجباتهم الدينية على أحسن وجه لنيل مرضاة الله تعالى.

نخلُص إلى القول أن تعلم اللغة العربية يحصل بالتبعية ، فتعلمها لازم من لوازم التدين وفي هذا الشأن يقول أبو منصور الثعالبي : " ومَن هداه الله للإسلام، وشرحَ صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أنَّ محمدًا –

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صلَّى الله عليه وسلَّم – خيرُ الرُّسل، والإسلامَ خيرُ المِلَل، والعربَ خيرُ الأمم، والعربيةَ خير اللُّغات والألسنة، والإقبالَ على تفهُّمِها من الدِّيانة؛ إذْ هي أداةُ العلم، ومفتاح التفقُّه في الدِّين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد"[1]

لقد أدرك أسلافنا من الفاتحين أن تعليم اللغة العربية للأعاجم من أهل الأمصار التي فتحوها أمر من أمور الدين ، فهي عامل من عوامل وحدة الأمة وانسجامها وتماسكها و مكونات هويتها.

غير أن بعض الباحثين من يرى أن هناك دوافع أخرى للمستعربين لتعلم اللغة العربية دوافع ماديه غير روحية ودنيوية غير دينية قال بعضهم " الدوافع الدنيويَّة كان لها عظيمُ الأثر أيضًا في الإقبال على اللُّغة العربية تعلُّمًا وتعليمًا، فلمَّا كانت العرب أمَّة فاتحة، ولها السِّيادة والعزَّة على سائر الأمم المغلوبة؛ كانت لُغتُهم العربيَّة ذاتَ شأنٍ وعلوٍّ يَطْمح إليها جُمهورُ النَّاس؛ لِيتَّصِلوا بالخُلَفاء والأمراء، وقد رأَوْا "هؤلاء الخلفاء وعمَّالهم يُجْزِلون العطاء لِمَن يجود شِعرًا أو نَثرًا، ويُقرِّبونَهم إليهم ويُولُّونَهم مناصب في الدَّولة، كل ذلك له أثَر أيَّ أثرٍ في إقبال النَّاس على اللُّغة، حتى إنَّ الرجل ليَدْفع بابنه إلى تعلُّمِها رجاءَ أن يَجنِيَ ثَمرة، أو يُحرِز جاهًا"[2]

التفسير والمفسرون في المغرب الأوسط :

أهمية علم التفسير :

لا شك أن علم التفسير من أجل العلوم وأشرفها ، فقد استمد شرفه من شرف موضوعه وهو القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،كما استمد شرفه من نبل غايته ، وهي فهم مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ليتسنى لنا العمل بأحكامه وتشريعاته ونعبد الله تعالى على الوجه الشرعي الصحيح كما أمرنا . ويكفي المفسر وطالب علم التفسير شرفا أن الله تعالى أوكل مهمة البيان لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ النحل :44

تفسير الشيخ هود بن محكّم الهواري :

الشيخ هود بن محكم الهواري واحد من العلماء الأجلاء الذين قادوا ما يعرف بالهبة الفكرية – على حد تعبير دباجة الملتقى – بالمغرب الإسلامي في وقت مبكر من تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ، وظل تفسيره الموسوم ب "تفسير كتاب الله العزيز " طي النسيان طوال أحد عشر قرنا من الزمن مخطوطات متناثرة هنا وهناك . ولم ير النور إلا في بداية تسعينيات القرن الماضي ، بعد أن حققه الحاج بن سعيد شريفي وطبع لأول مرة بدار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1990م . وهو أول تفسير جزائري وصل إلينا.

قال المحقق في مقدمة الكتاب : " لعل أول مصدر مطبوع ورد فيه ذكر لهذا التفسير إنما هو كتاب السير للبدر الشماخي المتوفى سنة 928 هـ:" [9] غير أن الحقيقة أن أول مصدر ورد فيه ذكر لهذا التفسير ولمؤلفه إنما هو كتاب "طبقات المشايخ بالمغرب لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني ت 670 هـ تحقيق وطباعة : إبراهيم طلاي ذكر المفسر ومؤلفه في معرض ترجمة أحد أعلام الطبقة السابعة وهو الشيخ أبو محمد جمال المدوني[10] حيث ساق قصة خصام بين شريكين في تفسير هود بن محكم تحت عنوان " يختلفان لأجل كتاب فيفصل بينهما الشيخ " وهذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نصه :"ذكر أبو الربيع أنَّ رجلا من مزاتة قارض رجلا بمال فكان يتجر به، فبينما هو ذات يوم في بعض شؤونه، إذا بكتاب **تفسير القرآن لهود بن محكم الهواري** يعرض للبيع، فاشتراه وجاء به إلى ربِّ المال، فقال له: إنِّي اشتريت هذا الكتاب وهو لي دونك، وإنَّما لك رأس المال، فقال له رب المال: بل هو لي دونك، وإنَّما لك نصيبك من الربح، إن كان في متجرك ربح.

فتخاصما وتشاتما، حتَّى قامت مع كلِّ واحد عشيرته متعصِّبة، وتآمروا على القتال، وتواقف الفريقان وقد أشرفوا على أن يتفانوا. فبلغ ذلك أبا محمد جمالا، فجاء مبادرا، فقال: إيتوني بالكتاب الذي أراكم تريدون أن تقتتلوا عليه، فأتوه به ففتح وقصد موضعا منه، فإذا بين النصفين ورقتان بيضاوان، ففصل ما بين النصفين، وضمَّ إلى كلِّ نصف ورقة بيضاء، وقطعه بسكين وأعطى لكلِّ واحد من الخصمين نصفا، وقال: من شاء منكما الآن إكمال الكتاب المذكور فلينسخ النصف الذي فاته فاصطلح الفريقان، وافترقا على خير." [11] وللأمانة لم يذكره صاحب الطبقات هذا كعَلَم مستقل من الأعلام ولهذا تشفع للمحقق كلمة " لعل " التي صدر بها الحكم .

وفي نفس السياق ذكر المحقق أن مونتلانسكي كتب بحثا في نشرة المراسلة الإفريقية سنة 1885م أورد فيه قائمة بأسماء كتب للإباضية ذكر فيها أنها لمؤلف مجهول من القرن التاسع الهجري "[12] وعقب المحقق في الهامش على لفظ "مؤلف مجهول" بقوله : " والصحيح أنها لأبي القاسم البرادي المتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري.."

والحقيقة أني بعد أن عُدت إلى المصدر المكتوب باللغة الفرنسية لمونتلانسكي وجدت أنه ينسب القائمة للبرادي حيث قال : "أُعط كمقدمة رسالة لقائمة يوجد فيها ذكر لمؤلفات المذهب منذ بداية الإسلام إلى القرن التاسع للهجرة .إن اكتشاف هذه القائمة تم في القرن التاسع من طرف أبو القاسم بن إبراهيم البرادي مما سهل أبحاثي كثيرا " ولعل المحقق غفل سهوا عن النص في النسخة الأصلية ،أو أن من ترجم له هذا النص أوقعه في الخطأ وفي جميع الأحوال نقر له بجهده الكبير الذي يستحق عليه الشكر والثناء ، وإنما ذكرنا ذلك من باب الإنصاف والأمانة العلمية. وهذا نصه الأصلي بالفرنسية

« je donne a titre d introduction d une lettre- catalogue ou se trouve l énumération des ouvrages de la secte depuis les premiers temps de l Islam jusqu' au IX siècle de l hégire . La découverte de ce catalogue fait au IX siècle par Aboul Qacem ben Ibrahim El berradi a beaucoup facilite mes recherches[13]

ذكر الشيخ إبراهيم البرادي في مقدمة كتابه الموسوم ب " الجواهر المنتقاة فيما أخلَّ به كتاب الطبقات" أن له مآخذ عل صاحب كتاب طبقات المشايخ بالمغرب على أنه أغفل عن ذكر الصدر الأول وأخل بذكر ما عليه المعُول " ولعله يريد بعبارته هذه أن يعيب عليه أنه لم يترجم لأعلام المذهب ومشايخه ، وهم المعول عليهم . وعليه جاء لإتمام ما أخل به حيث يقول: " فجمعت في ذلك من آثار أصحابنا وغيرهم كتابا سميته بجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به صاحب الطبقات "[14]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومما جاء عن المفسر هود بن محكم في هذا الكتاب لم يزد على قوله : " ومن تأليف أصحابنا أهل المغرب التفسير الذي هو لهود بن محكم الهواري في سفرين كبيرين "[15]

ومعلوم في مراجع الإباضية إذا أطلق مصطلح "الطبقات " في المصادر الإباضيَّة بالمغرب فيعني "كتاب طبقات المشايخ بالمغرب " للدرجيني (ت670هـ) ، الذي صنف تراجم العلماء والأئمة المغاربة دون المشارقة في اثنتي عشرة طبقة ،تضم كل طبقة خمسين عاما، وقد عد الطبقة الأولى من السنة الأولى للهجرة إلى السنة الخمسين، والثانية من السنة الخمسين إلى المائة، وهكذا حتى انتهى. كما يطلق لفظ " أصحابنا " بالإضافة، أو الأصحاب بـ"ال" العهدية في المصادر الإباضيَّة على الموفِّين من أتباع المذهب الإباضي، ويستعملها المشارقة والمغاربة على السواء.[16]

وأمام شح المصادر التي تحدثت عن سيرة المفسر هود بن محكم الهواري تبقى كثير من جوانب حياة الرجل مخفية ، مما يضطر الباحث إلى التعامل مع النزر القليل بشيء من التخمين وما تجود به قريحته . وهي الصعوبة التي واجهت المحقق في التعريف به وتقديمه إلى القارئ حيث يقول : " وكل ما أوردوه عنه – أي كُتاب السير والمؤرخون – إنما هو أخبار يسيرة في أسطر قليلة وردت عَرَضا في مصدرين أو ثلاثة منها : كتاب السير لأحمد بن سعيد الشماخي وهو من علماء القرن العاشر ت 928 هـ. حيث قال : " " ومنهم هود بن محكم الهواري وتقدم الكلام على أبيه وهو عالم متفنن غائص[17] وهو صاحب التفسير المعروف وهو كتاب جليل في تفسير كتاب الله لم يتعرض فيه للنحو والإعراب بل على طريقة المتقدمين وأتاه من يستعينه على نوائب الدهر، وعلى التخلص من دين ركبه، فقال له: ائت حياً هناك من أحياء مزاته[18]، و أرسل معه رسولاً وقال له: قل لهم: قال لكم هود بن محكم اجعلوا له صلة، فبلغهم. فأعلمهم رسوله فبسط رداءه فجعلوا يلقون فيه الذهب والفضة والدراهم والحلي حتى كاد أن لا يُحمل، فأتى به هوداً، فأخذ ما احتاج، وترك لهود الباقي لمن يغشاه من الفقراء والمحتاجين ومن يقصده من العزابة " [19]

ما يستفاد من هذا النص :

أولا : تأكيد نسبة التفسير إلى هود بن محكم الهواري ، دلت على ذلك النصوص السالفة الذكر

ثانيا : رسوخه في العلم فوصفه بالغائص لها دلالة فالغواص هو من يُبحر في العمق ليستخرج اللآلئ والدرر ، في إشارة إلى عمق فكره وتصوره .

ثالثا : وأما وصفه بالمتفنن توحي بكثير من الدلالات منها الانضباط في العمل والدقة والإخلاص كيف لا وتفسيره من الشهرة والمكانة والنفاسة مما جعل الناس يتنافسون إلى حد النزاع والخصام على اقتنائه وتحصيله بل كاد الأمر أن يصل إلى حد الاقتتال لولا أن تدخل العالم أبو محمد جمال المدوني بحكمة في حل النزاع وتدارك الأمر.

رابعا : ما يستفاد من النص أيضا ، أنه سلك في التفسير منهج المتقدمين أي التفسير بالمأثور وقوله لم يتعرض فيه إلى النحو والإعراض في إشارة إلى بعده عن التفسير بالرأي بل كان يفسر القرآن الكريم وبما أثر عن النبي صلى الله عليه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وسلم والصحابة الذين عايشوا الوحي وشهدوا التنزيل وجلسوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونهلوا من معينه وكذا التابعين.

خامسا :النص يشير بوضوح إلى أخلاق الرجل العالية فهو يعين على نوائب الدهر، ولا يرد سائلا ، فهو مقصد المعوزين والمحرومين من أصحاب الحاجة ، فضلا عن ذلك كان يتمتع بالوجاهة ليس بين قبيلته فحسب ، بل وجيها عند القبائل النائية عنه . يستدل على ذلك قوله للرسول الذي أرسله مع الرجل كما جاء في النص:" قل لهم: قال لكم هود بن محكم "

سادسا :كان هود بن محكم يتمتع بخلق رفيع اسمه العفة ، مدح الله تعالى المتعففين في قوله ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ البقرة :273 فما تبقى من كل أصناف المال ، من ذهب وفضة وحلي ودراهم بعد أن أخذ الرجل قدر حاجته . لم يحتفظ به هود لنفسه ، بل أبقاه لمن يقصده من الفقراء والمحتاجين .

نخلص إلى القول أن أسلافنا كانوا قدوة لغيرهم ، ملكوا القلوب قبل العقول ودعوا إلى دين الله بأخلاقهم وسلوكهم . فقيادتهم تعدت الهبة الفكرية إلى الهبة الأخلاقية .

مميزات منهج تفسيرهود بن محكم الهواري :

أولا : من خلال قراءتنا لمقدمة تفسير الشيخ هود بن محكم الهواري التي تجاورت العشر صفحات، أصل فيها المفسر لكثير من مسائل وقضايا علوم القرآن بالاستدلال لها من النصوص الشرعية . حيث بدأ تفسيره بالحديث عن أول وآخر ما نزل من القرآن ونزول القرآن على سبعة أحرف ، وجمع القرآن الكريم في عهدي أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان رضي الله عنهما والفرق بين الجمعين ، كما أشار إلى اختلاف القراءات بين الصحابة رضي الله عنهم ، وأن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة وإنما نزوله كان منجما ، وذكر أن ترتيب سور القرآن وآياته كان توقيفيا ثم تحدث عن رسم المصحف ثم انتقل إلى الحديث عن التفسير وبين المحمود من المذموم والشروط لواجب توافرها في المفسر حيث جعلها اثنتي عشرة علما وهي على النحو التالي : معرفة المكي والمدني ، والناسخ والمنسوخ ، والتقديم والتأخير ، والمقطوع والموصول [20]، والخاص والعام ،والإضمار [21]والعربية[22]

كل ذلك يظهر مدى إلمام المفسر بقضايا علوم القرآن ، فهو كما وصفه الشماخي في السير " عالم متقن غائص "

ثانيا: آثر في تفسيره مبدأ التيسير على القارئ من خلال الإيجاز غير المخل ، وسهولة العبارة وقصرها ، فهو يُعبر عن المعنى المراد بأقل الألفاظ ، مُتجنبا الحشو والاستطراد.

ففي كثير من الأحيان يفسر الآية والآيتين بكلمة واحدة مقتصرا على غريب الألفاظ

نحو:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا أي لا حساب عليكما فبه وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ لأنفسكما بخطيئتكما [23]

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ البقرة : 46 يعني البعث[24]

قوله : وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ أي القرآن **مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ أي التوراة والإنجيل**

وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا والاستفتاح الدعاء[25]

ثالثا : استخدم منهج التفسير بالمأثور وأبرَزَ خطواته الإجرائية فتارة يفسر القرآن بالقرآن وتارة يفسره بالسنة وتارة بأقوال الصحابة وتارة بأقوال التابعين ، وإذا أعجزه ذلك فباللغة وان كان هذا نادرا في تفسيره ، وهو منهج يعتمد على الرواية والأثر وتقديم النقل على العقل وهو الأحوط خشية الوقوع في الزلات وفي الوعيد عند القول في القرآن بغير علم **تفسير القرآن بالقرآن** :

ومثال ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا...)** آل عمران : 116.

قال: " أي في الآخرة، ولو افتدى به، وهو قوله: **(يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)** الشعراء : 88-89 وكقوله: **(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا..)**سبأ: 37.

وقال في آية أخرى: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** المائدة : 36 وقال في آية أخرى **(...يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ)**.المعارج11/ 12 [26]

– من أمثلة تفسير القرآن بأقوال الصحابة

قوله : " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " البقرة : 185

ذكروا عن ابن عباس أنه قال : إنما يريد الله بالإفطار في السفر التيسير عليكم ، فمن يسر عليه الصوم فليصم ، ومن بسر عليه الإفطار فليفطر

ب – من أمثلة تفسير القرآن بالسنة :

قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)الانشقاق 8/7 ذكروا عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذي يحاسب حسابا يسيرا فقال : ذالكم العرض ولكن من نوقش الحساب فهو هالك [27]

د – من أمثلة تفسير القرآن بأقوال التابعين

قوله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ) البقرة 188

قال الحسن :هو الرجل يأكل مال الرجل ثم يجحده ويأتي به إل الحكام ، فالحكام إنما يحكمون بالظاهر ، وإذا حكم له استحله بحكمه[28]

محمد رافة
المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رابعا : في تفسير هود بن المحكم إرهاصات لمنهج جديد في التفسير لما عرف حديثا بالتفسير الموضوعي وهو إفراد الآيات القرآنية التي تعالج موضوعا واحدا من موضوعات القرآن الكريم مع تعدد مواطنها واختلاف ألفاظها من خلال جمعه للآيات في الموضوع الواحد ، صحيح أن طريقة تفسره بجمعه للآيات في الموضوع الواحد لا تنطبق عليها مواصفات التفسير الموضوعي المعاصر بالمعنى الدقيق وبآلياته وخطواته الإجرائية لكن قد تلهم من جاء بعده من العلماء والباحثين بالتفكير في منهج جديد إلى جانب المنهج التحليلي والإجمالي والمقارن على النحو الذي هي عليه اليوم.

ربط أية آل عمران بأية الشعراء لاشتراكهما في الدلالة والمعنى

قوله : (**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ**) أي لن تنفعهم(**أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**) أي حطب النار . وهو مثل قوله : **(يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ) الشعراء :88** [29]

وفي موضوع النفاق ربط بين لآية البقرة وآية التوبة

(فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ)يعنى بذلك النفاق.يقول في قلوبهم نفاق فنسب النفاق إلى القلب، كما نسب الإثم إليه ... وأخت هذه الآية ونظيرتها التي في براءة(**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) التوبة : 77 يقول أعقبهم بالخلف والكذب الذي كان منهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه** [30]

الخاتمة :

أهم نتائج البحث : الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات ،أوصلني البحث إلى جملة من النتائج نلخصها فيما يلي:

أولا : علماء الغرب الإسلامي ساهموا مساهمة فعالة إلى جانب إخوانهم المشارقة في بناء حضارة ضلت رائدة لقرون من الزمن.

ثانيا : لعبت الحواضر العلمية القرويين والزيتونة وتهرت وتلمسان وقرطاجة وإشبيليا دورا بارزا في نشر العلم والثقافة وساهمت في وحدة الأمة وتماسكها رغم تعدد مذاهبها

ثالثا : الوقوف على سيرة علم من أعلام الجزائر قي القرن الثالث الهجري ألا وهو هود بن محكم الهواري ساهم في نشر العلم والمعرفة ، وقدم للأمة تفسيرا قيما للقرآن الكريم في وقت مبكر من عمر الحضارة ، سلك فيه منهجا أصيلا وهو منهج التفسير بالمأثور.

رابعا : لا يزال الكثير من تراثنا الفكري والحضاري الذي يمثل مجد الأمة وتاريخها من مخطوطات تنتظر التحقيق ورؤية النور ، لكشف حقيقة مجهولة أو إضاءة زاوية مظلمة أو إكمال عقد حلقة مفقودة .

خامسا: يظهر من خلال تفسيره الذي قدم له بمسائل وقضايا في علوم القرآن دليل على سعة اطلاعه وعمق فكره وتصوره ، فضلا عن ذلك ،فهو يتمتع بأخلاق عاليه وخصال حميدة ، عفيفا ،زاهدا ، ورعا ، يعين على نوائب الدهر ، مقصدا للمعوزين وذوي الحاجة مطاعا في قومه كل ذلك جعله وجيها في قومه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سادسا : تفسيره الموسوم ب "تفسير كتاب الله العزيز " كان ذا قيمة علمية وشهرة بلغت الآفاق ،جعل الناس يتنازعون على اقتنائه والظفر به ، حتى كاد الأمر يصل إلى حد الاقتتال كما جاء في كتب السير والأعلام

سابعا: تعلم اللغة العربية لغير الناطقين بها من أبناء المغرب الإسلامي ، كان بدافع تعلم أمور الدين ومبادئ الشريعة وفهم نصوصها لعبادة الله على أحسن وجه

ثامنا :تولد لدى أهل المغرب الإسلامي من البربر والأمازيغ أن الفاتحين يحملون مشروعا حضاريا قادرا على تخليصهم من الظلم والطغيان وفي المقابل ينشر قيم العدل والتسامح فكانت النتيجة انسجام أهل الغرب الإسلامي مع إخوانهم المشارقة ، فكانت الهبة الفكرية والحضارية بجناحين بعد كانت بجناح واحد.

الهوامش :

[1] – رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم : 1559

[2] – محمد لعروسي المطوي ، مقال تحت عنوان " البربر واللغة العربية" ،جريدة القدس العربي العدد : 8345 16يناير 2016

[3] – الحديث رواه أحمد 22978. صححه الألباني

[4] – د. يوسف الخليفة أبو بكر ، مشكلات التعليم باللغة العربية في المناطق الثنائية اللغة في الوطن العربي ، مدونة التربية والتكوين 2012/10/5

[5] – علي طالب جيلالي ، الأمين العام للمجلس الأعلى للغة العربية ، ندوة نظمها المجلس بمقر المدرسة العليا للصحافة وعلوم الإعلام عشية إحياء اليوم العالمي للغة العربية، المصادف ل18 ديسمبر،

[6] – ينظر: القواعد والأصول الجامعة، ص: 12، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، ص: 393

[7] – أبو منصور الثعالبي ، "فقه اللغة وسر العربية": تحقيق مصطفى السقَّا وآخَرين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008، ص21.

[8] – أحمد حسن الباقوري ، " أثر القرآن الكريم في اللغة العربية " ، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ص 46.

[9] – الشيخ هود بن محكم الهواي ، تفسير كتاب الله العزيز ،تحقيق :الحاج بن سعيد شريفي ،ط 1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1990م ، ج1 ص6

[10] – هو أبومحمد جمال المزاتي المدوني من علماء القرن الرابع الهجري كان يقيم بين ورجلان وبلاد أريغ وقد صنفته المصادر الإباضية في الطبقة السابعة من طبقات العلماء، انظر:الشماخي ،كتاب السير،ج 1 ص 245.

[11] – الشيخ أبو العبّاس أحمد بن سعيد الدرجيني ، " طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق وطباعة : إبراهيم طلاي ج2، ص345

[12] – مقدمة تفسير هود بن محكم ، ص7/6

[13] – Bulletin de correspondances africain 1885 publiée par 1 école supérieur des lettres Alger tome 3 p 15

[14] – الشيخ إبراهيم البرادي ، " الجواهر المنتقاة فيما أخلَّ به كتاب الطبقات" ص4

[15] – المرجع السابق ص219

[16] – ينظر : "معجم مصطلحات الإباضية " تأليف لجنة البحث العلمي جمعية التراث 2002م ، ص 632

[17] – الغوص هو النزول تحت الماء، وقيل الغوص الدخول في الماء يُقال غاص في الماء غوصاً فهو غائص وغواص، وقيل أن الذي يغوص على الأصداف فيستخرجها غائص وغواص. والمراد هنا أنه متعمق في التفسير انظر: لسان العرب، ابن منظور، م 7، ص 62.

[18] – قبيلة من قبائل البربر التي تعيش تحت إمارة الدولة الرستمية والضاربة جذورها على جانبي حدود الدولة الأغلبية في إقليم الزاب. انظر: المسالك والممالك ، لابن خرداذبة ، ص 83، وانظر: الخوارج في بلاد المغرب العربي حتى منتصف القرن الرابع، د. محمود إسماعيل،ص 159

[19] – لأبي العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي ت 928 هـ ،كتاب السير ، تحقيق : أحمد بن سعود السيابي ، ط2 ، وزارة التراث القومي والثقافة ، 1992م ص 381

[20] – المقطوع هو ما قطع عما بعده رسما، ويقابله الموصول، ولا بد للقارئ من معرفة هذا الباب؛ ليقف على المقطوع في محل قطعه عند انقطاع نفسه، أو امتحانه، وعلى الموصول عند انقضائه أي معرفة مواطن الوقف والوصل لأنه يترتب عليها فهم الآية

[21] – يقصد بالإضمار الحذف نقول علامة ظاهرة وأخري مضمرة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[22] :ينظر : مقدمة تفسير هود بن محكم من ص61 إلى ص72

[23] – تفسير هود بن محكم ، ص98

[24] - تفسير هود بن محكم ، ص103

[25] – تفسير هود بن محكم ، ص125

[26] – تفسير هود بن محكم ، ص 380.

[27] – تفسير هود بم محكم العزيز، ج 4، ص 489

[28] – تفسير هود بم محكم العزيز، ج 1، ص 178

[29] – تفسير هود بم محكم العزيز، ج 1، ص 269

[30] – تفسير هود بم محكم العزيز، ج 1، ص 84/83

قائمة المصادر والمراجع:

1– القرآن الكريم

2- أحمد بن حنبل ، مسند أحمد بن حنبل ، دار إحياء التراث ، ت ط 1993م

3- أحمد حسن الباقوري ، " أثر القرآن الكريم في اللغة العربية " ، دار المعارف، ط 4

4- البرادي إبراهيم ، " – البيهقي ،أبو بكر ، شعب الإيمان ، تحقيق : د عبد العلي عبد الحميد حامد ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض ، ط1 ،2003م

5- البورنو ، محمد صدقي بن احمد ، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية ، مؤسسة الرسالة ، ط4 ، 1996م

6- الثعالبي أبو منصور ، "فقه اللغة وسر العربية": تحقيق : مصطفى السقَّا وآخَرين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،2008م .

7- ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، مطبعة بريل ، 1889م

8- الدرجيني أبو العبّاس أحمد بن سعيد ، " طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق وطباعة : إبراهيم طلاي ، ط1 ، 1974م

9- لجنة البحث العلمي "معجم مصطلحات الإباضية " جمعية التراث 2002م

10- محمود إسماعيل ، "الخوارج في بلاد المغرب العربي حتى منتصف القرن الرابع " رسالة دكتوراه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،ط2 ، 1985م

11-المطوي محمد لعروسي ، مقال تحت عنوان " البربر واللغة العربية" ،جريدة القدس العربي العدد : 8345 16 يناير 2016

12- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر بيروت ، ط 3 ، 1414هـ

13- علي طالب جيلالي ، الأمين العام للمجلس الأعلى للغة العربية ، ندوة نظمها المجلس بمقر المدرسة العليا للصحافة وعلوم الإعلام عشية إحياء اليوم العالمي للغة العربية، المصادف ل18 ديسمبر

14- السعدي ، عد الرحمن بن ناصر ، القواعد والأصول الجامعة ، مطبعة المدني القاهرة ، 1956م

15- الشماخي ، أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، " كتاب السير " ، تحقيق : أحمد بن سعود وزارة التراث القومي والثقافة ، ط2، 1992 م

16- هود بن محكم الهواي ، تفسير كتاب الله العزيز ،تحقيق :الحاج بن سعيد شريفي ، دار الغرب الإسلامي بيروت ط 1 ، 1990م

17- يوسف الخليفة أبو بكر ، مشكلات التعليم باللغة العربية في المناطق الثنائية اللغة في الوطن العربي ، مدونة التربية والتكوين 2012/10/5

Bulletin de correspondances africain 1885- publiée par l école supérieur des lettres Alger - tome 3- p 15

[1] – أبو منصور الثعالبي ، "فقه اللغة وسر العربية": تحقيق مصطفى السقَّا وآخَرين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008، ص21.

[2] – أحمد حسن الباقوري ، " أثر القرآن الكريم في اللغة العربية " ، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ص 46.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com